خطبة صلاة الجمعة 5/ 6/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(في ظل هذا الغلاء كيف أساعد أبناء بلدي؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

قال ابن كثير: يهدي إلى الرُّشد أي يهدي إلى السَّداد والنَّجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

قال المفسرون: معنى قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَّشَد والرُّشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ✕: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة العشرون في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منَّا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتُقدِّم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى، تعينه على رؤية الطريق وتُمكِّنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزةً تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة، لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(في ظل هذا الغلاء كيف أساعد أبناء بلدي؟)**

المسألة:

أسمع وأرى الشدةَ التي تنزل بالبلاد والعباد في بلدي، حصارٌ ظالم خانق ووباءٌ يشل الحركة أو يضعفها وتضخمٌ كبير وغلاءٌ في الأسعار ورواتبُ معظمِ الناس لا تلبي حاجاتِهم الأساسية.

كنت فقيراً فأغناني الله، فأنا أشعر بألم العفيف إذا افتقر، وذليلا فأعزني الله، فأنا أحس بقهر العزيز إذا ذل، أتألم لحاجة غيري واضطراره، أتمنى أن أعطيَ الجميع ولكنْ لا أملك، وأن أعينَ الجميعَ ولكنْ لا أستطيع، فكيف أساعد أبناء بلدي؟ أرشدوني.

الدليل الإرشادي:

في الدليل ثلاث فقرات: من اهتم لأمر الناس فهو المؤمن، لن تسعوا الناس بأموالكم فلتسعهم أخلاقكم، بذل الوسع أساس النفع.

أولاً: من اهتم لأمر الناس فهو المؤمن:

لم تزل قلوب المؤمنين تفيض رحمةً على الناس، تفرح لفرحهم وتألم لألمهم، تدعو أصحابها لعون الضعيف ومواساةِ المصاب وعيادةِ المريض ونصرةِ المظلوم، فالإيمان رَحِمٌ يجمع أهله، قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»** [مسلم].

وقد روى الطبراني عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يُصْبِحْ وَيُمْسِ نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ ولإِمَامِهِ ولِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»**.

في سورة العصر حضٌّ واضحٌ للمسلم في أن يكون مع الجماعة يعينهم ويعينوه: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾ [العصر: 1 – 3].

فالإنسان المنفرد عن الجماعة الذي يعيش لنفسه ولتحقيق حظوظه من دون الاكتراث بالآخرين في خُسْر ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ولكنه إن آمن وبذل الخير لنفسه وللآخرين ربح ونجا من الخسران، ومن

هنا ذكرت السورة الفلاح بلفظ الجمع ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فجاء الخسران مقترناً بالفرد والفلاح مقترناً بالجماعة.

فحين تستقر حقيقة الإيمان في القلب، تنبعث الرحمة منه إلى الآخرين، ليمشي صاحبُه وراء رسول الله ﷺ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

ومن لم يجد في قلبه الاهتمامَ لمصاب الناس والتفكيرَ في عونهم فليراجع إيمانه.

ثانياً: لن تسعوا الناس بأموالكم فلتسعهم أخلاقكم:

إنّه لا يحيط بكل العباد إلا ربُّ العباد، فليبذل أحدنا في مساعدة الناس وسعه، وليدلي في بر الخلق بدلوه، وليوقن بأنّ المقيت هو الله فهو -سبحانه- المقدِّر أقوات الخلق والموصلُها لهم جل جلاله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: 85].

وليوقن بأنّ المعطي هو الله فمن سأل فليسأل الله، وما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة إلا أعطاه إياها، إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50].

وليوقن أنّ الرزاق هو الله ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 60] قال المفسرون: («لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا» أي لا تدخره، فمن لم يدخر رزقه في كيسه أو خزائنه فالله يرزقه.

قال ابن قتيبة: ومعنى الآية: كم مِنْ دابَّة لا ترفَعُ شيئاً لغدٍ) قال الزمخشري: (والدابة: كل نفس دبت على وجه الأرض، عقلت أو لم تعقل. لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله، اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ أي لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو، وعن الحسن لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تدّخره، إنما تصبح فيرزقها الله).

وجاء في تفسير الشعراوي: ({الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ...} فذكر الدواب أولاً في مجال الرزق ثم عطف عليها {وَإِيَّاكُمْ... } فنحن معطوفون في الرزق على الدواب، مع أن الإنسان هو الأصل، وهو المكرّم، والعالَمُ كلُّه خُلِق لخدمته، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه: نحن نرزقكم وإياهم، لماذا؟

قالوا: لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك) فلا يخافن امرؤ على رزقه ما دام له رب رزاق مقيت.

وختم الآية بقوله (وهو السميع العليم) ومناسبة "السميع" هنا؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة، أو يبكي بكاءً يدل على أنه جائع، فقال سبحانه وهو السميع لتلك الصيحة وذاك البكاء، وربما حبس امرؤ جائع دمعه وأخفى صوته فأخبره سبحانه أنه العليم بحاله.

والحاصل -أيها الإخوة- إنه لن يحيط بكل العباد إلا رب العباد، ولكن ليبذل أحدنا في مساعدة الناس وسعه وليدلي في بر الخلق بدلوه، أخرج البزار في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق**».

ثالثاً: بذل الوسع أساس النفع:

أخرج الترمذي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ وقف على ناس جلوس، فقال: «**ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله، أخبرنا بخيرنا من شرنا، قال: خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره**».

يستطيع بعضنا أن يساعد الناس بصدقاته أو زكاته، ويستطيع آخرون أن يزيدوا رواتب موظفيهم وعمالهم، ويستطيع غيرهم أن يخففوا عن المستأجر أجرته أو لا يرفعونها على أقل تقدير، ويستطيع قوم أن يتكفلوا بعض طلاب العلم في الأسر الفقيرة، ويستطيع بعضنا أن يقدم خدمة للآخرين بالمجان أو بأجر بسيط، ويستطيع آخرون أن يتعاونوا لتزويج شاب، ويستطيع غيرهم أن يكفلوا يتيماً أو يعينوا أرملة، ويستطيع قوم أن يشتركوا للشراء من أسواق الجملة بالجملة، ويستطيع بعضنا ألا يوقف أعماله خدمة للخلق وتقرباً للخالق، وتستطيع سيدات أن تعملن أعمالاً منزلية لتضفن دخلاً لدخل أزواجهن، ونستطيع جميعاً أن ندخر في النفقات وأن نقتصر على الضرورات وبعض الحاجيات.

ومهما يكن من أمر، فإنّ اللهَ يعلم القادر على مساعدة الآخرين من العاجز، والمستطيع من غير المستطيع، وإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42] ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 62] ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7].

وبعد أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأشباهه: شكر الله لك همك واهتمامك بضيق الناس ومصابهم، وهذا دليل إيمانٍ صحيح بإذن الله، وسيرٍ وراء رسول الله ﷺ، واعلم أخي أنّ الله كافل عباده رازق لهم موصل إليهم أقواتهم في السراء وفي الضراء وحين السلم وحين البأس.

وإنه لن يحيط بكل الخلق إلا خالقهم، فابذل في عونهم وسعك وساعد محتاجهم قدرتك وأعن ضعيفهم طاقتك، واعلم أن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا. والله أعلم.

ختاماً – أيها الإخوة:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

والحمد لله رب العالمين